الاستشهاد بالشعر في رسائل أبي بكر الخوارزمي

دة. صبيرة قاسي *

الملخص:

الاستشهاد ظاهرة معروفة لدى القدماء، خاصة الاستشهاد بالشعر، وهذا ما نلاحظه في رسائل أبي بكر الخوارزمي، حيث لا نكاد نعثر على رسالة خالية من الاستشهاد والتمثل بالشعر، بل إن الأمر أحيانا يتعدى الاستشهاد بالبيت الواحد إلى البيتين أو عديد الأبيات، وللاستشهاد وظائف عديدة منها الاحتجاج لقضية فكرية، أو دينية، أو سياسية، أو تاريخية، وغير ذلك من الأفكار والمعاني. وهذا ما سنبحثه في رسائل الخوارزمي محاولةً منا التوصل إلى الادوار التي يضطلع بها الاستشهاد بالشعر في هذه الرسائل.

لقد نظر البعض إلى الاستشهاد باعتباره ممارسة تناصية تقوم على تكرار وحدة من خطاب في خطاب آخر، وحين تندرج الوحدة الأولى في خطاب مختلف فإنها تؤثر فيه وتتأثر به في الآن نفسه، ويحدث بين الاثنين تفاعل ينتج عنه تحول في الدلالة وإنتاج قيم جديدة، وهذا في نظرنا ما يمنح الاستشهاد أهميته، وينأى به أن يكون من قبيل الاحتجاج الشكلي.

Abstract :

The exemplification is a phenomenon known among the ancients, including exemplification poetry, this is what we have noticed in the Letters of Abu Bakr al Khwarizmi to the point where we do not find a letter containing only no exemplification through poetry and sometimes exceeds an exemplification to two or more worms The exemplification several functions, including the arguments of an intellectual matter, religious, political or historical and other ideas and meanings This is what we seek in al Khwarizmi Letters trying to achieve the roles of exemplification by poetry in these Letters

Some consider the exemplification of intertextuality as an exercise based on the repetition of a speech unit in another speech, and when the first unit enters a different speech, she influenced him and influenced by him at the same time it occurs between an interaction that results in a change in the meaning and the production of new values, and it is our opinion which gives importance to the exemplification and away to be like formal argument

---

* أستاذة محاضرة أ، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة البويرة

. نبذة عن أبي بكر الخوارزمي: هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر ، و يقال له أيضا الطبرخزي لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان . هو ابن أخت محمد بن جرير الطبري . و كان الخوارزمي إماما في اللغة و النسب ، أقام بالشام و قصد الصاحب بن عباد و هو في أرجان وجالسه وباسطه . اشتهر بكثرة حفظه للشعر .

لم يصلنا من آثار أبي بكر إلا مجموعة رسائل تعرف باسمه ، وهي مطبوعة في مصر ، وفي الآستانة وفي بومباي . وفي الجزء الرابع من يتيمة الدهر أمثلة كثيرة من نثره ونظمه . وفيه قصائد المدح والمراثي والأهاجي ، وهو غير محمد بن موسى الخوارزمي الفلكي الرياضي المعاصر للمأمون ، وغير أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي صاحب مفاتيح العلوم[1] .

. الاستشهاد بالشعر في رسائل الخوارزمي: الاستشهاد ظاهرة معروفة لدى القدماء ، فقد قال أبو هلال العسكري في شأنه: «وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر ، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى ، وهو أن تأتي بمعنى ، ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول ، والحجة على صحته« . ولكن الأشيع في كتابات هؤلاء شيوع الاستشهاد بالشعر ، وهذا ما نلاحظه في رسائل أبي بكر الخوارزمي . حيث لا نكاد نعثر على رسالة خالية من الاستشهاد والتمثل بالشعر ، بل إن الأمر أحيانا يتعدى الاستشهاد بالبيت الواحد إلى البيتين أو عديد الأبيات .

وللاستشهاد وظائف عديدة منها الاحتجاج لقضية فكرية ، أو دينية ، أو سياسية ، أو تاريخية ، وغير ذلك من الأفكار والمعاني . وهذا ما سنبحثه في رسائل الخوارزمي محاولةً منا التوصل إلى الادوار التي يضطلع بها الاستشهاد بالشعر في هذه الرسائل لقد نظر البعض إلى الاستشهاد باعتباره ممارسة تناصية تقوم على تكرار وحدة من خطاب في خطاب آخر ، وحين تندرج الوحدة الأولى في خطاب مختلف فإنها تؤثر فيه وتتأثر به في الآن نفسه ، ويحدث بين الاثنين تفاعل ينتج عنه تحول في الدلالة وإنتاج قيم جديدة ، وهذا في نظرنا ما يمنح الاستشهاد أهميته ، وينأى به أن يكون من قبيل الاحتجاج الشكلي .

إن الاستشهاد بالأشعار من بين مظاهر أسلوب الترسل ، إضافة إلى السجع ، الجناس والبديع ، وكثرة الخيال الشعري حتى أصبح السجع في رسائل الكتاب

(1) ينظر جورجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية2 ، موفم للنشر ، الجزائر 1993 ، ص ص 480 ، 479.

كالشعر المنثور [1] وهو« ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ووضوحا ويكسبه قوة على إبداء ما في خاطر الكاتب» [2] .

باعتبار الاستشهاد citation علامة تناصية ، راينا من الضروري الوقوف عند مصطلح التناص ، فهو يعد من بين الأدوات الرئيسية في الدراسات الأدبية . وهو يقوم على أن كل نص يمكن قراءته على أساس أنه فضاء لتحول واحد أو أكثر من النصوص في نصوص أخرى .

إن التناص ، حسب ريفاتيير ، هو ملاحظة القارئ لعلاقات بين عمل أدبي وأعمال أخرى سابقة أو لاحقة عليه ، و من هذا المنطلق نربط ما بين التناص والاستشهاد الشعري الذي« يؤسس علاقة تناصية بين نصين ويتولد من خلال هذه العلاقة دلالات جديدة للنص الأول المستشهد به [3] .

الاستشهاد الشعري أو التنصيص من زاوية شكلية يتحدد من الإيراد الواضح لنص مقدم و محدد في آن واحد بين هلالين مزدوجين [4] فهو بهذا المعنى« إعادة إنتاج لبنية نصية افتطعت من نظام دلالي وجمالي أصلي فتم توظيفها في نظام دلالي وجمالي آخر مستقبل» [5].

يلتقي المصطلح مع الكثير من المفاهيم الأخرى المتعلقة بالتناص ، كالتمثيل ، الاقتباس ، اللصق ، والشرح... وتعني ، جميعها ، تكرار لوحدة خطابية في خطاب آخر ، والهدف من ذلك تحويل عناصر منفصلة ومتقطعة إلى كل مستمر ومتناسق ، وذلك عن طريق الكتابة بالترتيب وإقامة الروابط بين العناصر المتناصة[6] .

إن الاستشهاد « هو ما يستعيره نص مكتوب من خطاب آخر ، على المستوئ الشكلي غالبا ما يتم إبراز الاستشهاد بعلامات لغوية أو طباعية ، وقد يكون ضمنيا و غير ملحوظ ، يمتاز في كلتا الحالتين بوظيفته الإرجاعية : التذكير بالنص الأصلي . في الموروث البياني للعصور القديمة ، من أرسطو حتى كنتليين ،

(1) ينظر زيدان ، المرجع السابق ، ص ص 470 ، 469.
(2) زيدان ، المرجع السابق ، ص471.
(3) ينظرعبد القادر يقشي ، التناص في الخطاب النقدي و البلاغي ، أفريقيا الشرق ، المغرب 2007 ، ص91.
(4) ينظر المرجع نفسه ، ص90 ، نقلا عن جيرار جنيت ، مدخل لجامع النص.
(5) نفسه ، ص90 ، نقلا عن مارك دوبيازي ، نظرية التناص ، ص117.
(6) ينظر نيفين ساميول ، التناص ذاكرة الأدب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، تر: نجيب عزاوي ، دمشق2007 ، ص22

يعتبر الاستشهاد تزيينا للخطاب ومصدرا لسلطته ... امتلاك الاستشهادات يؤدي إلى امتلاك الخطاب»[1] . كما هو واضح ثمة تداخل كبير بين مصطلحي التناص والاستشهاد ، لأن المبدع يقوم بنفس الوظيفة في الحالتين ليدفع بالمتلقي إلى المفاجأة أثناء تلقيه لهذه النصوص .

في أوائل الثمانينات ألف أنطوان كومبانيون كتابا بعنوان« اليد الثانية ، أو اشتغال الاستشهاد» ، وفي هذا الكتاب يقدم دراسة منهجية للاستشهاد باعتباره ممارسة تناصية . في رأي هذا الناقد أن الستشهاد بتكراره لوحدة من خطاب في خطاب آخر ، فإنه يعيد إنتاج الملفوظ الذي يقتطع من نص أصل (أصل1) ليتم إدخاله في نص مستقبل (نص2) ، وإذا كان النص المستشهد به يظل على حاله بالنظر إلى دواله ، فإنه يتعرض لتغيير دلالته بسبب تغير موقعه و سياقه ، و من ثم فإنه ينتج قيمة جديدة ، و يتسبب في تحويلات تؤثر على دلالة النص المستشهد به و النص المستقبل معا [2] .

يعرف جرار جنيت التناص بالشكل الذي يشتغل عليه الاستشهاد قديما ، و ذلك حين يعتبره« علاقة حضور متزامن بين نصين أو أكثر أو الحضور الفعلي لنص داخل نص آخر... و بدرجات و أنماط عديدة و مختلفة في هذه العلاقة بشكلها الأكثر جلاء و حرفية» [3] . وهذا ما تقره جوليا كريستيفا أيضا ، إذ تعتبر أن التناص هو الحضور الفعلي لنص ما في نص آخر ، و هذا المفهوم يعتبره جنيت واحد من بين الخمس علاقات ما وراء نصية و هي:[4]

. التوازي النصي: paratextualite : هو العلاقة التي ينشئها النص مع محيطه النصي المباشر(العنوان ، العنوان الفرعي ، العنوان الداخلي ...) وفي إطار هذا المجموع النصي يتكون العمل الأدبي(عتبات) النصية الواصفة metatextualite : هي علاقة التفسير التي تربط نصا بآخر ، بحيث يتحدث عنه دون أن يذكره صراحة بالضرورة ، أو هي علاقة نقد .

. النصية المتفرعة : hypertextualite: هي العلاقة من خلالها يمكن لنص ما أن يشتق من نص سابق عليه بوساطة التحويل البسيط أو المحاكاة . وضمن هذا

(1) بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان فيالا ، معجم المصطلحات الأدبية ، تر:محمد حمود ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ط1 ، بيروت 2012 ، ص106.

(2) المختار حسني ، نظرية التناص ، علامات في النقد ، المجلد 10 ، الجزء34 ، ديسمبر1999 ، ص ص 251 ، 250.

(3) المختار حسني ، المرجع السابق ، ص253.

(4) ينظر علامات في النقد ، المقال السابق ، ص253.

النوع تندرج المحاكاة الساخرة و المعارضات .

ـ النصية الجامعة : ARCHITEXETUALITE ؛ وهي علاقة بكماء صينية أو مختصرة لها طابع تصنيفي خالص لنص ما ، من خلال هذا التفصيل يمكننا إسقاط كل هذه الوظائف للاستشهاد الشعري ، ففي هذه العملية التلقائية للمؤلف تظهر العلاقات التي تربط بين النصوص الراهنة و النصوص الغائبة .

مثلما تتحقق الممارسات النصية بالتناص ، تتحقق أيضا بالمعارضة ، بالاقتباس ، و كذلك بالتلميح ، و كل هذه المصطلحات تشير جميعا إلى حضور نص سابق في النص الحالي . مع الاختلاف الطفيف في كيفية التعامل مع العلاقة التناصية [1] فنجد ، من خلال ، التلميح ALLUSION أن علاقة النص المتناص مع السابق غير متنافرة كما هو في الاقتباس ، إذ يكون التلميح أحيانا ، دلاليا صرفيا ، دون أن يكون تناصيا بالمعنى الحرفي للكلمة »[2] .

إن النص المستشهد به بعد عملية التناص يتحول إلى وسيلة لتحقيق مقاصد المؤلف وينتقل إلى مستوى كونه أداة ووسيلة ، وللاستشهاد ، بهذا الشكل ، وظائف تربط بين المؤلف والمتلقي ، وله مستويات يختصرها الناقد عبد القادر يقشي كالتالي:[3]

1 ـ الاستشهاد بالشطر الواحد: إذ يعمد المعارض من خلال هذا الاستشهاد إلى صرف دلالة المستشهد به إلى وجه آخرغير وجهه الأصلي .

2 ـ الاستشهاد بعدة أشطر: وهنا يقوم المعارض بعملية اختيار فنية ، فهو ينتقي و يضمن أشطرا من أبيات النص المرجعي لإنجاز برنامجه الفني التحويلي ، و تحقيق مقاصده .

أما عن طرق الاستشهاد فهي تتحقق في شكلين:[4]

ـ الاختلاف الجزئي: وفيه« يختار المعارض مقاطع من النص المحتذى فيوظفها بدلالتها الأصلية » .

ـ الاختلاف الكلي: وهو نتيجة تتحقق عندما« يضمن المعارض مقاطع شعرية محولا دلالتها الأصلية حتى تنسجم و مقصده الأساسي » .

يرد لدى بعض النقاد مصطلح التناص الاستشهادي الاقتباسي ، و هنا الربط

(1) ينظر نيفين ساميول ، التناص ذاكرة الأدب ، ص31.
(2) نيفين ساميول ، المرجع السابق ، ص32.
(3) ينظر عبد القادر يقشي ، التناص في الخطاب النقدي و البلاغي ، ص92 ـ 103.
(4) المرجع نفسه ، ص95.

ما بين التناص والاستشهاد ، لأنه« إذا كان التناص يمثل الحضور الفعلي لنص ما داخل نص آخر ، بشكل معلن أو خفي ، فإن الاستشهاد citation يمثل الدرجة العليا لهذا الحضور النصي »[1] . ولأن هذا الحضور واضح وحرفي يصبح وجوده« بين النصين مندمجا ، حتى يغدوان كتلة واحدة غير متشظية ، وإذا كان هذا الملفوظ المستشهد به يبقى على حاله بالنظر إلى دواله ، فإن تغيير الموقع الذي يتعرض له بتحول دلالته و ينتج قيمة جديدة و يتسبب في تحويلات تؤثر في دلالة النص المستشهد به و النص المستقبل له معا عند نقطة الاندماج بينهما [2] ويمكن أن نمثل لذلك بهذا المخطط:

وقد ورد عند الباحث محمد عزام بعض المفاهيم التناصية ، إذ ربط بين التناص والاستشهاد ، عن طريق ما يسمى بالمصاحبات الأدبية ، وهي« الاستشهادات الأدبية التي تدخل في بنية نصية معينة » . [3] والتي تحقق مجموعة من العلاقات التي نراها بين النصوص ، وفي أغلب الأحيان تتجاوز هذه العلاقات قضية التأثرو التأثير إلى أمور تتعلق بالبنية و النغم و الفضاء الإبداعي عموما ، فهذه العناصر هي التي تحقق التفاعل النصي وكذا التعالي النصي ، المصطلح الذي ورد عند جنيت ، و هو التداخل و التلاحم بين النصين المتناصين ، إذ أن قوة هذا التداخل تتحقق عن طريق الاستشهاد[4] .

يحيلنا هذا الأمر إلى الإحاطة بمجموعة من الوظائف التي يحققها الاستشهاد داخل النص الشعري لأبي بكر الخوارزمي . لكن قبل ذلك نحدد أنواع و مختلف الاستشهادات التي وردت في رسائله .

. أنواع الاستشهاد في رسائل الخوارزمي:

ـ الاستشهاد بشطر: ورد هذا النوع قليلا في هذه الرسائل ، و قد ورد ذلك في ـ رسالة أبي بكر إلى الوزير ابن عباد لما ورد باب جرجان لقتال الأمير » قابوس بن وشمكير » ، حيث يستشهد بشطر للشاعر مزرد بن ضرار الثعلبي ، يقول: [5] وعندي للحرب العوان مهند

(1) عصام حفظ الله حسين واصل ، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر ، أحمد العواضي أنموذجا ، دار غيداء للنشر و التوزيع ، ط1 ، عمان 2011 ، ص78.
(2) عصام حفظ الله حسين واصل ، المرجع السابق ، ص79.
(3) محمد عزام ، النص الغائب ، تجليات التناص في الشعر العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق2001 ، ص31.
(4) ينظر محمد عزام ، المرجع السابق ، ص40.
(5) أبو بكر الخوارزمي ، رسائل أبي بكر الخوارزمي ، مطبعة الجوائب ، ط1 ، قسطنطينية 1297هـ ، ص58.

يستشهد الخوارزمي بشطر واحد للنابغة في رسالة كتبها إلى أبي محمد العلوي ، يقول:(1)(2)

و ليل أقاسيه بطى الكواكب

ويستشهد أيضا بشطر ليزيد بن الطثرية:

و يوم كظل الرمح قصر طوله

2 ـ الاستشهاد ببيت شعري:

وهذا النوع هو الغالب في رسائل أبي بكر ، و نشير إلى أن هذه الأبيات المستشهد بها تتخلل نصوصا نثرية كثيرة الأسجاع . و هذا ما يخلق بينهما انسجاما إيقاعيا و تناغما حادا ، يستشهد ببيت للمتنبي حينما قال في سيف الدولة:

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأشخاصهم يدا خيموا

وكذلك حين قال في كافور الأخشيدي:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا(3)

وقد ورد البيتان في رسالة الخوارزمي للحاجب أبي اشحاق لما نكبه الوزير ابن عباد رحمه الله .

في رسالة موجهة إلى رئيس بهراه يعزيه أبو بكر بابن أخته و ابنته ، يستشهد ببيت واحد للطائي يقول:

عليك سلام الله وقفا فانني رأيت الكريم الحر ليس له عمر(4)

يتوزع هذا النوع من الاستشهاد على كل صفحات رسائل الخوارزمي تقريبا ، يأتي بعضها تمهيدا للرسائل . يمكن اعتبارها بمثابة عناوين التي بدورها تشكل عتبات النص ، حسب جنيت ، التي تقدم مفاتيح ولوج المتلقي إلى عالم النص .

ـ الاستشهاد ببيتين: يرد هذا النوع في رسائل الخوارزمي متجانسا مع النوع الثاني ، من حيث العدد ، لا نجد الاستشهاد بعدة أبيات اعتباطيا لدى المؤلف ، لأنها مرتبطة بمقاصد الرسائل ومدى قربها إلى وجدان المؤلف . و لعلنا نقف عند بعضها ، ففي الرسالة التي وجهها إلى تلميذ له ، و قد كتب إلى معلمه رسالة و قصيدة ، نجده مسرورا و ممتنا ، يشيد ببراعته « نظمك أيدك الله تعالى أحسن

(1) المصدر نفسه ، ص33.
(2) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(3) أبو بكر الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص6.
(4) المصدر نفسه ، ص20.

من نثرك ، ونثرك أحسن من شعرك ، فكل واحد منهما عيار على صاحبه حسنا و جمالا ، و مثال له تماما و كمالا ، فالحمد لله الذي جعل بيانك متكافئ الشرفّ .[1] فمن خلال هذا المقطع من الرسالة نستشف مدى تأثر المؤلف باجتهاد تلميذه ما دفعه إلى تذييل رسالته ببيتين له يقول:

و فارقت حتى ما أبالي من انتوى و إن بان جيران علي كرام
فقد جعلت نفسي على النأي تنطوي و عيني على فقد الصديق تنام

يستشهد ببيتين لعبد الله بن المعتز في رسالة كتبها إلى يزيد صاحب سمرقند ، يقول ، فال عبد الله بن المعتز:[2]

قولا لمكتوم يا خير البساتين الحمد لله حتى أنت تجفوني
قد كنت منتظرا هذا فجئت به وليس خلق على غدر بأمون

يرد هذا النوع من الاستشهاد هذه المرة بمثابة التحية التي تتصدر الرسائل العادية . و ذلك في رسالة وجهها لأبي نصر الميكالي يشكره على اصطناعه فقيها من تلامذته:[3]

أبلغ قتادة غير سائله جزل العطاء و عاجل الشكم
إني شكرتك للعشيرة إذ جاءت إليك يرقة العظم

. الاستشهاد بعدة أبيات: يندرهذا النوع في هذه الرسائل ، و قد ورد في خمس رسائل ، أهمها الرسالة التي كتبها الخوارزمي إلى جماعة الشيعة بنيسابور لما قصدهم محمد بن ابراهيم واليها . الأبيات التي وردت في هذه الرسالة قالها علي بن العباس الرومي و هو مولى المعتصم ، و فيها الحديث عن التضحية فداء لرسول الله:

تأليت أن لا يبرح المرء منكم يتل على حر الجبين فيعفج
كداك بنو العباس تصير منكم و يصير للسيف الكمى المدجج
لكل أوان للنبي محمد قتيل زكى بالدماء مضرج[4]

حين كتب الخوارزمي إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب لما شارف نيسابور ، استرسل في الاستشهاد بالأبيات الشعرية الكثيرة و هي الحالة الوحيدة في رسائله .

(1) الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص51.
(2) الخوارزمي ، ص 56.
(3) نفسه ، ص119.
(4) الخوارزمي ، ص137.

جاءت في بداية الرسالة عنوانا لها ، و ما يميز هذا العنوان إيقاع جميل مبني على تواز تركيبي عمودي و تكراركلمة « مرحبا« التي وقعت في بداية الأبيات . فحققت ما يسمى بالهندسة الصوتية الفاتحة ، وهذا ما زادها أيضا نغما مميزا يجانس طبيعة رسائل أبي بكر المسجوعة . لم ينسبها المؤلف للشعراء ، لعلها من إبداعه يقول:(1)

مرحبا بالقمر الطا لع في جنح الظلام
مرحبا بالأسد الور د و بالجيش اللهام
مرحبا بابن شبيب وأياديه الجسام
مرحبا بالرجل الأوحد من بين الأنام
مرحبا بالكاتب الجزل و بالخير الهمام
قد نجونا منك يا بينفودعْ بسلام

. وظائف الاستشهاد في رسائل الخوارزمي يضطلع الاستشهاد بتادية وظائف عدة في رسائل الخوارزمي ، لعل أهمها ثلاث: الوظيفة الإيقاعية ، والوظيفة الدلالية ، والوظيفة الإقناعية ،

وقبل الخوض في هذه الوظائف نتساءل : لم الاستشهاد بالشعر في النصوص النثرية ؟ تتعدد الإجابات وتتنوع ، ولكننا نرى أن أهم ما يدفع الكاتب إلى التمثل بالشعر هو السلطة التاريخية للشعر العربي ، وسهولة حفظه . هذه السلطة هي التي ينضح بها كلام ابن رشيق القيرواني ، في الباب الذي خصصه لفضل الشعر:

« وكلام العرب نوعان:منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان في القدر ، وتساوتا في القيمة ، ، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ـ كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية ، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة »(2).

أما أبو هلال العسكري فإنه يعدد في كتاب الصناعتين الأوجه التي يتفوق بها الشعر على غيره ، ذاكرا منها صفة النظم وطول بقائه على ألسن الرواة وبعد

(1) الخوارزمي ، ص187.
(2) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط5 ، بيروت 1981 ، ص 19.

سيره في الآفاق وهو في هذا نظير الأمثال ، [1] والشعر مرتبط ارتباطا شديدا بالوجود التاريخي للعرب يقول العسكري:

« وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب ، وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ، ومستودع علومها » [2] هذا السلطان الذي للشعر على باقي الكلام عند العرب هو الذي جعل الاستشهاد به يلقي بثقله وبحقق الوظائف المشار إليها سابقا .

1. الوظيفة الإيقاعية:

تظهر هذه الوظيفة في كون رسائل الخوارزمي ذات أسلوب مسجوع لا مرسل ، ومن ثم تأتي الأبيات الشعرية تتويجا وتعضيدا في الآن ذاته لهذا الزخم الإيقاعي الذي يحققه السجع (وهو في البلاغة العربية من أهم الظواهر الأسلوبية في النثر[3] ، تقارب الجمل في الطول ، والتوازي التركيبي ، وتكرار الكلمات في مساحة مكانية ضيقة ، كما في الرسالة التي بعث بها إلى أبي بكر بن سمرد ، ففيها تتعاضد العناصر السالفة خالقة إيقاعا لافتا:

« وقد كنتُ أعيب من الشعراء من مدح إنسانا ثم هجاه ، وأنسبه إلى ضعف الملكة وإلى وهن العزيمة وانحلال العقدة ، حتى بليت الآن بهجاء الدهر وطالما مدحته ، ودفعت إلى حربه وطالما صالحته [4].

« وإن تركتُ ذكرها لاحت على فعلي سمة الكفران ، وعرفتٌ بسوء مجازاة الإحسان ، وحرمتُ نفسي ثمرة اللسان ، فقد أسكتَ الشيخُ لساني من حيث أنطقه ، وحصر بناني من حيث أطلقه ، وعلى ذلك فقد أسمعْتُ شكري كل من له أذن ، وأريتُ أثرَ صنيعته كل من له عين » [5].

في هذين النموذجين يمكن تمييز مجموعة من التوازيات يمكن تمثيلها في الجداول الآتية:

إلى	ضعف	الملكة
إلى	وهن	العزيمة
و	انحلال	العقدة

(1) ينظر أبوهلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1952 ، ص 137.
(2) المصدر نفسه ، ص 138.
(3) محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، افريقيا الشرق ، ط2 ، الدار البيضاء 2002 ، ص 113.
(4) أبو بكر الخوارزمي ، ص 123.
(5) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

بليتٌ	بهجاء	الدهر	وطالما	مدحتُه
دُفعْتُ	إلى حربه	/	وطالما	صالحتُه

لاحت	على فعلي	سمةَ	الكفران
عرفْتُ	سوء	مجاراة	الإحسان
حرمْتُ	نفسي	ثمرةَ	اللسان

أسْكتَ	الشيخُ	لساني	من حيث	أَنْطقَه
حصر	/	بناني	من حيث	أَطْلقَه

هذا الجدول يتضمن إضافة إلى التوازي روافد إيقاعية تتمثل في السجع الداخلي (لساني ، بناني) ، والجناس الواقع في موقع السجع ، أي في آخر الجملتين (أنطق ، أطلق) ، والرافد الثالث هو التكرار ، تكرار (من حيث) .

أسمعْتُ	شكري	كلَ منْ	له أذْن
أريْتُ	أثرَ صنيعه	كلَ منْ	له عيْن

ومن هنا فإن إدراج بيت من الشعر لا يعد ، إيقاعيا ، إقحاما لعنصر دخيل ، وإنما هو دفع بالإيقاع لكي يحقق شكله الأمثل .

2 . الوظيفة الدلالية:

ترتد هذه الوظيفة غلى تلك العلاقة الدلالية بين الأبيات الشعرية والرسالة التي ترد ضمنها ، وهي علاقة دلالية تنتظمها محاور بعينها ، وتتنوع هذه الوظيفة بتنوع موقع الاستشهاد الشعري في الرسالة ، وبنوعية علاقته بالدلالة عامة أو جزئية . ولذلك فإن بعض الاستشهادات تقع في صدر الرسالة رابطة علاقة وثقى بالدلالة العامة لها ، فتصبح حينئذ أشبه بعنوان للرسالة ذاتها ، عنوان يلخصها ويشير إلى عالمها الدلالي ، فتكون الرسالة في هذه الحالة تنويعا على البيت الشعري المستشهد به . هذا ما نلمسه في رسالة الخوارزمي إلى وزير قابوس بن وشكمير[1] ، فهو يصدرها بالبيت الشعري الآتي:

وكلُ ولاية لا بد يوماً مُغيرَةُ الصديق على الصديق

تم يرد كلام الكاتب بعد هذا البيت ليشير صراحة إلى أن الاستشهاد هنا يقوم بعملية التوليد الدلالي بامتياز:

« لقد كنت أنتظر مصداق هذا البيت من سيدي حتة حقق الله تعالى ظني ، ولو أكْذبَه كان أحبَ إليَ ، وأوقَعَ لديَ ، فسبحان من جعل حصتي من وفاء

(1) الخوارزمي ، ص ص 18 ، 17.

الإخوان منحوسة ، وتجارتي فيما أعاملهم به مركوسة »[1] .

وتستمر الرسالة دون أن تحيد عن مضمارها الدالي المتمثل في جفاء الوزير للخوارزمي ، أما العلاقة الجزئية للاستشهاد بالرسالة فتظهر حين لا يغطي الإشعاع الدالي للبيت الشعري المستشهد به مساحة الرسالة كلها ، وإنما يكتنف بعض محاورها الدلالية دون البعض الآخر ، وهذا ما نلفيه في رسالة الخوارزمي إلى الوزير ابن عباد ، وعلى الرغم من تضمن الرسالة تعزية موجهة إلى الوزير في وفاة أخته ، فإن الكاتب ينهيها بالثناء عليه ، مستعيرا لسان طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفرا حين أزْلَقتْ بنا نعلنا في الواطئين وزَلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منا لملت[2]

وقد يأتي الاستشهاد في نهاية الرسالة ملخصا إيها ، « فيكون بمثابة البيت الأخير من القصيدة جامعا معانيها بالغا بها أقصى ما يمكن للمعنى أن يبلغه من القوة وحسن السبك والإيحاء » [3] وهذا ما تمثله بوضوح رسالة الخوارزمي إلى أبي الوفا صاحب جيش عضد الدولة [4] ، إذ يعرض فيها الكاتب رغبته في التقرب من صاحب الجيش ، ويأسف لعدم حظوته بمرافقته في حين ينعم الآخرون بالقرب منه ، ثم يأتي الاستشهاد الشعري ليجمل كل ذلك في نهاية الرسالة:

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلي منه أسود مظلم

3. الوظيفة الإقناعية: يقوم الاستشهاد الشعري بوظيفة إقناعية ، باعتباره منتميا إلى ما يسميه أرسطو الوسائل الجاهزة أو الوسائل غير الصناعية ، ويدخل ضمنها القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء ، ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، الأبيات الشعرية والحكم ، وتستمد هذه الوسائل قوتها الإقناعية من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها ومن تواترها[5] ولتحقيق التأثير المطلوب فقد كان الاعتماد غالبا على الأبيات الشعرية التي تجري مجرى المثل[6] ، والتي تتضمن ما يشبه الحكم العام أوالجكمة أو يقترب تقترب من إطار هذين .

---

(1) المصدرنفسه ، ص18.
(2) الخوارزمي ، المصدر السابق ، ص86.
(3) عبد الله البهلول ، في بلاغة الخطاب الأدبي ، قرطاج للنشر والتوزيع ، « 1 ، تونس 2007 ، ص 85.
(4) المرجع نفسه ، ص ص 113 ، 112.
(5) ينظر محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص90.
(6) ينظر المرجع نفسه ، ص 91.

وبالعودة إلى رسائل الخوارزمي نلفي كثيرا من الاستشهادات الشعري تميل إلى الدلالات المكتملة التي تحقق بذاتها فضاء دلاليا شبه مغلق ، وذلك حتى تكون صالحة للتدليل على صحة ما يذهب إليه الكاتب المستشهد بها ، وحتى يمكن التأثير بها في المرسل إليه . ومن هذا القبيل رسالته إلى كاتب بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب ، [1] فبعد أن يتمنى للمخاطب الشفاء ، يعرج على إظهار خطورة الجرب ، مستندا إلى ما ورد لدى الشعراء ، مستشهدا ببيتين متتاليين أحدهما لأبي تمام :

لما رأت أختها بالأمس قد خربتْ كان الخراب لها أعدى من الجرب

والثاني للبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

خاتمة:

الاستشهاد بالشعر في رسائل الخوارزمي ليس من باب الترف والزخرفة اللفظية ، ولكنه مكون أصيل في النص الرسالي ، يتفاعل مع ما حوله مؤثرا ومتأثرا ، مضطلعا بوظائف ذكرنا بعضها ، هو ذو حضور لافت ومتنوع .

المصادر والمراجع:

ـ أبو بكر الخوارزمي ، رسائل أبي بكر الخوارزمي ، مطبعة الجوائب ، ط1 ، قسطنطينية 1297هـ .
ـ ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط5 ، بيروت 1981 .
ـ جورجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية2 ، موفم للنشر ، الجزائر 1993 .
ـ عبد القادر يقشي ، التناص في الخطاب النقدي و البلاغي ، أفريقيا الشرق ، المغرب 2007 .
ـ عبد الله البهلول ، في بلاغة الخطاب الأدبي ، قرطاج للنشر والتوزيع ، « 1 ، تونس 2007 .
ـ محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، افريقيا الشرق ، ط2 ، الدار البيضاء 2002 .
ـ المختار حسني ، نظرية التناص ، علامات في النقد ، المجلد 10 ، الجزء34 ، ديسمبر1999 .
ـ أبوهلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1952 .

(1) الخوارزمي ، ص 115ـ 118.

المراجع المترجمة:

ـ بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان فيالا ، معجم المصطلحات الأدبية ، تر:محمد حمود ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ط1 ، بيروت 2012 .
ـ نيفين ساميول ، التناص ذاكرة الأدب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، تر: نجيب عزاوي ، دمشق2007 .